# ماقبل الإنسان

إن الإسلام آخر الأديان السماوية نزولاً، فإذا اتجهنا إليه، فى نظرة شاملة كلية لنرى فيه الصلة بين الكون وما وراء الكون، أى بين الله والعالم، بين الخالق والمخلوق، بين المكوّن والكون.. فنرى نظرته إلى الكون المادى، والكون الحسى والكون الاجتماعى، والكون الأخلاقى.

ونحن فى رحاب الكون نحتاج إلى معرفة زواياه وأركانه، مادية كانت أو روحية، ونحتاج إلى معرفة صلته بما وراءه مما هو فوق الطبيعة.

ونحن فى هذه الدراسة سنبتعد كل البعد عن الأساطير والأوهام، ولن نسير وراء الخيال ومتاهاته، وإنما سندرس الأمر من منابعه الأصلية، وهى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

فإذا ما كنا بصدد آية كريمة فسنلتزم أصح التفاسير، وإذ كنا بصدد حديث شريف فسنلتزم صحة الحديث أو حسنه على الأقل.

ونبدأ أول ما نبدأ من ذلك بالابتداء الطبيعى العادى النظرى: وهو أن هذا الكون لم ينشأ مصادفة، ولم يوجد اعتباطًا، ولم يُكوّن اتفاقًا.

إننا ونحن فى رحابه نشاهد الترابط بحيث يمكن أن يقال فى يقين جازم: إن الكون كله سماواته وأرضه: وما بين السموات والأرض.. إن الكون بحاره وأنهاره، جباله ووديانه، نباته وحيوانه.

إن جميع أجزاء الكون تؤلف وحدة متكاملة مترابطة.

هذا التكوين المترابط فى ملايين الجزيئات الكونية، فى بلايين بلايين هذه الجزيئات ينفى فى تأكيد مؤكد فكرة الطبيعة العمياء، أو فكرة المصادفة والاتفاق..

وإذا انتفت فكرة المصادفة والاتفاق، فإن النتيجة التى تترتب على ذلك هى أن للكون مكوّنًا.

ولعل القارئ يلاحظ مما سبق أننا نبدأ الحديث بمسألة وجود الله والاستدلال على هذا الوجود، وأن ترابط الكون هو من الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى.

انظر إلى هذا الترابط فى قوله تعالى:

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه: أنا صببنا الماء صبًّا. ثم شققنا الأرض شقًّا. فأنبتنا فيها حبًّا وعنبًا وقضبًا، وزيتونًا ونخلاً وحدائق غلبًا، وفاكهة وأبًّا متاعًا لكم ولأنعامكم﴾ (سورة عبس آية ٢٤-٣٢).

وانظر إلى الترابط بين السماء والأرض، وبين الماء والنبات فى قوله تعالى:

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض، ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه، ثم يهيج فتراه مصفرًّا، ثم يجعله حطامًا، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾ (الزمر آية: ٢١).

هذا الترابط: أهو ترابط غائى؟ أى: ترابط هادف.

هذا الترابط بين بلايين أجزاء الكون الذى يعتبر دليلًا باهرًا على وجود الله إنما هو ترابط غائى على حد تعبير الفلاسفة، أى: ترابط له غاية، إنه ليس مجرد ترابط فقط، بل هو ترابط هادف فيه القصد، وفيه الغاية ومن أجل ذلك اعتبر هذا دليلًا على وجود الله، ولقد سمى هذا الدليل أيضًا الدليل الغائى، إذ أن كل شىء له غاية، وسمى أيضًا «دليل القصد» وذلك آن كل ما فى العالم مقصود لادخل للاتفاق فيه، هادف لادخل للمصادفة فيه وانظر إلى القصد والغاية فى قوله تعالى:

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج﴾ (ق آية: ٦-١١).

وانظر إلى قوله تعالى:

﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، إن فى ذلك

لآية لقوم يسمعون.. وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصًا سائغا للشاربين.. ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَرًا ورزقًا حسنًا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون. وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ (النحل آية: ٦٥-٦٩).

وشىء آخر.. ما هو؟

- يجول فى أذهان بعض الناس، أن هذا الترابط الهادف، وهذا التماسك المقصود، قد تحقق بقوانينه الثابتة، وقواعده التى لا تتغير، وسننه التى لا تتخلف، وأن الله سبحانه وتعالى انتهى منه خلقًا وتدبيرًا وإحكامًا، فهو يسير الآن على التقدير الذى قدره الله، يسير آليًا إلى الغاية المرسومة، يسير تبعًا لنواميس انتهى الله منها ولا يتدخل سبحانه فيها: أى أن العالم يسير الآن وحده دون إرادة من الله تصاحبه فى كل حركة أو سكون، وفى كل نطق أو صمت.

وليس الأمر كذلك، إن النظرة الاسلامية هى أن الله سبحانه يمسك النظام المترابط فى كل لحظة وفى كل ثانية، وأنه سبحانه لو تخلف عن شىء منه طرفة عين لتلاشى وفى ذلك يقول سبحانه:

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليمًا غفورًا﴾ (فاطر آية: ٤١).

هذه العقيدة تحتاج إلى إيضاح أكثر:

فى سورة فاطر نجد الآية الكريمة:
﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾.

وهو سبحانه الذى يمسك الطير فى جو السماء، يقول سبحانه:
﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء، ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ (النحل آية ٧٩).

ويقول سبحانه: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافَّات ويقبضن، ما يُمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير﴾ (الملك آية: ١٩) وهو سبحانه مالك الملك يؤتيه فى أية لحظة من يشاء، وينزعه فى أية لحظة ممن يشاء..

وهو سبحانه الذى يصرف الليل والنهار كلما أشرق فجر وكلما غربت شمس.

وهو الذى يَهَب الحياة أو يسلبها كلما تنسم كائن الحياة، وكلما فارقها، يقول سبحانه:
﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شىء قدير.

تولج الليل فى النهار، وتولج النهار فى الليل، وتخرج الحى من الميت، وتخرج الميت من الحى، وترزق من تشاء بغير حساب﴾ (آل عمران آية ٢٦-٢٧).

لعل القارئ الكريم يلاحظ استعمال الفعل المضارع فى هذه الآيات القرآنية، ودلالة الفعل المضارع إنما هى للحاضر وللمستقبل.

والآيات القرآنية من هذا القبيل كثيرة، يقول سبحانه:

﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (آل عمران آية: ٦).

ويقول سبحانه:

﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته، ولتجرى الفلك بأمره، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (الروم آية: ٤٦)

ويقول سبحانه:

﴿الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابًا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفًا فترى الودق يخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون. وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين. فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير﴾ (الروم آية ٤٨-٥٠).

– وما من شك فى أن الله خلق وقدّر، ووضع النواميس، وقعَّد القواعد، وذلك شىء.. وإمساك كل ذلك والقيومية عليه شىء آخر، فمع الخلق الإمساك، الإمساك مستمر لا ينتهى، وهذا هو معنى القيومية، وهى من صفات الله تعالى، والقيوم اسم من أسمائه سبحانه..

ومعنى القيوم أنه القائم بنفسه، وأنه الذى يقوم به كل موجود حتى أنه لا يكون للأشياء وجود ولا دوام وجود إلا به.

أهى قيومية إمساك فحسب؟؟

كلا: إنها قيومية علم، وتدبير قائم على العلم، فضلاً عن كونها قيومية إمساك.

– إن قيومية الله على العالم هى قيومية إمساك للعالم وإلا لتلاشى، ومن هنا كان المعنى العميق للدعاء الذى يدعو به كثير من الصالحين وهو: اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك.

إذ أن الله لو وكل إنسانًا إلى نفسه لتلاشى، فهو ممسك له ماديًّا، ولو وكله إلى نفسه روحيًّا لصار فريسة سهلة للنفس الأمارة بالسوء، وللشيطان الموسوس بالشر.

وقيومية الله على العالم قيومية علم محيط شامل، فهو سبحانه كما يقول فى كتابه ﴿يعلم السر وأخفى﴾.

أما السر فأمره معروف، وإنما الأخفى من السر فهو مافى دائرة اللاشعور.

وهو سبحانه:

﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾

وهو سبحانه:

﴿عالم الغيب والشهادة﴾.

﴿الله يعلم ماتحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾ (الرعد آية: ٨-١٠).

وعلمه سبحانه ليس مقصورًا على الماضى أو الحاضر فحسب، ولكنه شامل للمستقبل أيضًا، يقول تعالى:

﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ (الحديد آية: ٢٢)

وإذا كان الله سبحانه وتعالى أعلن أن علمه عام شامل بقوله:

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ إذ أن عالم الغيب هو ماوراء الطبيعة، وعالم الشهادة هو الطبيعة فإن الله سبحانه قد فصل الأجزاء والجزئيات وبين أنه

يعلم اليسير، والصغير والكبير.

يقول سبحانه:

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين. وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ (الأنعام آية: ٥٩-٦٠).

ويقول سبحانه:

﴿يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور، وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل بلى، وربى لتأتينكم، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين﴾ (سبأ آية: ٢-٣).

أما الأصغر من الذرة الذى ذكره الله سبحانه فى الآية الكريمة فلك أن تقول عنه فى سهولة ويسر، أنه البروتون والألكترون، ويكون القرآن بذلك قد أشار إلى تفتيت الذرة من قبل أن تفتت.

وهذه قيومية العلم وهى لا تنفك عن قيومية التدبير.

إن قيومية التدبير قائمة على قيومية العلم لا تنفك عنها، وهى تلازمها حتى لكأنها صفة واحدة.

– وقيومية التدبير هذه نبدأ الحديث فيها ببيان أنها قيومية نعمة، وأن التدبير الإلٰهى كان ولايزال معنيًّا بالإنسان مدبّرًا له ما يكفل له الحياة النعيم فى الحياة.

– وأنه سبحانه قد كيّف الأمور بحيث تتناسب مع الإنسان.

– وإذا كنا الآن قد اقتصرنا على استعمال كلمات الترابط الهادف، أو الترابط الغائى والإمساك والتدبير، فإننا الآن سنستعمل كلمة «العناية».

– إن الله سبحانه معنى بالعالم، وعنايته بالكون سارية فى جميع أجزائه وذا كانت كلمة العناية لاتخرج بنا عن جو الترابط الهادف والإمساك والتدبير فإنها تلون الحديث عن دليل الترابط على وجود الله بلون آخر، وإذا تلون هذا الدليل باللون الرحيم الرقيق سمى دليل العناية.

والقرآن غاص بتوجيه الأنظار إلى عناية الله بالكون، وعلى الخصوص بالإنسان فى رحاب الكون.

فمن أجل الإنسان كانت رحمة الله فياضة بالنعم، إنها فياضة بالنعم على الإنسان فى نفسه.

يقول سبحانه:

﴿ألم نجعل له عينين، ولسانًا وشفتين، وهديناه النجدين﴾ (البلد آية: ٨–١٠).

ويقول سبحانه:

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل

بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الروم آية:٢١).

ويقول تعالى:

﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (الاسراء آية:٧٠).

ويتحدث الله سبحانه عن نعمه العديدة التى أسداها إلى الانسان. فنعمة الليل والنهار بيّنها الله سبحانه بقوله:

﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (القصص آية: ٧١-٧٣).

- إن دليل العناية هذا من أجل الأدلة على وجود الله الذى يقول:

﴿ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولاكتاب منير﴾ (لقمان آية: ٢٠).

- وسنذكر مسترسلين مع التيار القرآنى أقوالاً لبعض الحكماء تؤيد هذا الدليل من حيث الترابط الهادف أو من حيث العناية.

إن عناية الله السماوية فى الكون كله، والتى يلاحظها الإنسان فى عينيه تبصران، وفى أذنيه تسمعان، وفى عقله يفكر، وفى لسانه ينطق، إن عناية الله التى يلاحظها الإنسان فى كل مايحيط به ويغمره من نعم الله تنفى المصادفة والاتفاق.

وإن الترابط الهادف يلغى المصادفة والاتفاق.

وأن القصد الظاهر فى نظام الكون ينفى المصادفة والاتفاق.

ولنتحدث الآن عن التركيب، وكيف أنه يرشد إلى الصانع.

– خذ شيئًا من أيسر الأشياء فى تركيبه، خذ الفأس مثلاً التى يستعملها الفلاح فى حقله، أو المعول الذى يستعمله العامل فى عمله، إذا مر إنسان على الفأس فرأى قطعة من الخشب ملساء مستطيلة قد ثبتت فيها بطريقة محكمة قطعة من الحديد على هيئة خاصة، أتراه يظن أن ذلك وليد المصادفة البحتة، وإذا كان ذلك الظن لا يتأتى فى اليسير السهل، فإنه من باب أولى لا يتأتى فى المعقّد الكثير التركيب كالساعة أو جهاز الراديو مثلاً..

والآن قدِّر فى ذهنك كما يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز:

– بيتًا منسق البنيان، فاخر الأثاث والرياش، قائماً على جبل مرتفع تكتنفها غابة كثيفة.. وقدر أن رجلاً جاء إلى هذا البيت فلم يجد فيه ولا حوله ديّارًا ولا نافخ نار.. فحدثته نفسه بأنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها، ثم تجمع ما تناثر منها ليأخذ شكل هذا القصر البديع

بما فيه من مخادع ومقاصير، وأبهاء، ومرافق، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحاً وتركبت أبوابًا وسررًا ومقاعد ومناضد، ثم أخذ كل منها مكانه فيه، وأن تكون خيوط الثياب وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشاة، ثم تقطعت طنافس، فانبثت فى حجراته واستقرت على أرائكه، وأن المصابيح جعلت تهوى إليه بنفسها من كل مكان، فنشبت فى سقفه زرافات ووحدانًا.. ألست تحكم بأن هذا حلم نائم، أو حديث خرافة. قد أصيب صاحبه باختلاط فى عقله؟ فما ظنك بقصر، السماء سقفه، والأرض قراره، والجبال أعمدته، والنبات زينته، والشمس والقمر والنجوم مصابيحه! أيكون فى حكم العقل أهون شأنًا من ذلك البيت الصغير؟

أو لا يكون أحق بلفت النظر إلى بارئ مصور، حى قيّوم، خلق فسوّى وقدّر فهدى؟

– إن الاستدلال على وجود الله سبحانه بدليل العناية قديم قدم الإنسانية نفسها.. فكل إنسان يشعر بأنه مغمور بنعم الله سبحانه فى داخل نفسه، وفى خارجها ويقول الله تعالى معبراً عن حقيقة يلاحظها كل إنسان بتدبر يسير:

﴿وإن تعُدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (إبراهيم آية: ٣٤).

...

ويقول أيضا:

﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ (لقمان آية: ٢٠).

– بهذا الدليل نفسه يقيم أحد الحكماء الحجة على أحد المنكرين لوجود الله. كان ذلك فى العصر اليونانى، وكان المنكر هو أرسطو ديوس وهو غير أرسطو الشهير وجرى الحديث بينه وبين سقراط، أبى الفلاسفة على النحو التالى:

قال سقراط: أفى الناس من يعجبك براعته فى الصنائع؟ قال: نعم! وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعده أبرع من غيره.

فقال سقراط: أيهما عندك أرفع شأنًا؟ من يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل، أم من يصور الأشباح الحية المتحركة؟

فقال: من يصنع الصورة الحية، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل الاتفاق، لا من عمل العقل.

قال سقراط: إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة، فما قولك فى تلك الأشياء؟ ما هى التى عندك من فعل العقل وما هى التى عندك من فعل الاتفاق؟

قال: لاشك أن ماظهر قصده ومنفعته من فعل العقل.

قال سقراط: أو لست ترى أن صانع الإنسان فى أول نشأته جعل له آلات الحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة، فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع مايكون لعيشه نافعًا صادقًا؟ وما فائدة الروائح لو لم تكن

لنا أنوف نشمها؟ وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المر والحلو والمز، لو لم يكن لنا لسان نذوق به؟

إن بصرنا معرض للآفات، أو لست ترى كيف اعتنت القدرة الإلٰهية بذلك فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع مايصيب البصر، وجُعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح؟

وما قولك فى آلة السمع وهى تقبل جميع الاصوات ولا تمتلئ أبدا؟ أما رأيت الحيوانات وكيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقًّا؟

فإذا تأملت فى ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك: هل هى من فعل الاتفاق أم هى من فعل العقل؟

قال أرسطو ديموس: نعم إذا تفكرنا فى ذلك فإننا نؤمن أنها من فعل صانع حكيم، كثير العناية بمصنوعاته.

- تحدثنا من قبل عن المصادفة ولكننا لم ننته منها بعد:

- متى أقامت المصادفة قصرًا؟، بل متى كونت غرفة واحدة ببابها ونوافذها؟ بل ومتى كونت بابًا، مجرد باب محكم الصنع..؟

أرأيت لو جاء إنسان بآلاف من حروف الطباعة، أو بملايين منها وأخذ يحركها يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، وسنة بعد سنة، أتراه يظفر منها

- مصادفة - بتركيب لها هو كتاب من كتب الأدب أو الفلسفة أو الرياضة؟

- إنه كما يقول المستشرق «سانتلانا» لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل من كدِّه إلا على حروف.

- وإذا كان الأمر كذلك فكيف يتصور -كما يقول سانتلانا أيضًا- حدوث هذا الوجود (العالم) بما هو عليه من الإتقان والإحكام، وتضافر الأجزاء، وعجيب مناسباتها بعضها لبعض، من حركات اتفاقية فى خلاء لا نهاية له كما يقول الماديون.

وما من شك فى أن أصحاب العقول المتزنة يتفقون مع أرسطو فى قوله من أن كل نظام يدل على العقل.

أما الكندى: الفيلسوف العربى الذى كان أول فيلسوف نشأ فى الإسلام والذى ولد سنة ١٨٥ هـ ومات سنة ٢٥٢ هـ فإنه يرى:

- أن الصنعة فى باب أو سرير أو كرسى بما يظهر فيها من تأليف وترتيب متقن محكم ليست أدل على الصانع من دلالة الكون عليه سبحانه، إن ذوى العقول الصافية لا يشكون فى ذلك، إننا إذا نظرنا إلى هذا العالم فى جملته - كما يقول الكندى - وجدناه مترابطًا مقدرا على النحو الأنفع الأحكم ووجدنا بعضه علة لكون بعض، وبعضه مصلحة للبعض. وكل ذلك ظاهر لمن كان فى مرتبة إدراك الصورة العامة.

- ويقول الكندى أيضًا:

- إن فى الظواهر والمظاهر التى تبدو للحواس لأوضح الدلالة على تدبير مدبر أول.

فإن فى نظم هذا العالم وترتيبه، وفعل بعضه فى بعض، وانقياد بعضه لبعض، وتسخير بعضه لبعض، وإتقان هيئته على الوجه الأصلح فى كون كل كائن وفساد كل فاسد، وثبات كل ثابت، وزوال كل زائل.. لأعظم دلالة على أتقن تدبير، ومع كل تدبير مدبر، وعلى أحكم حكمة، ومع كل حكمة حكيم، وذلك أن اقتضاء التدبير للمدبر، والحكمة للحكيم أمر لا يختلف فيه اثنان.

إن هذا النهج الاستدلالى الذى سرنا عليه للآن هو النهج الذى يقول فيه «كنت» فيلسوف «ألمانيا الأكبر»:

إنه أوضح الأدلة وأقواها على وجود الله، وهو نهج قرآنى إسلامى، بيد أن فى الإسلام نهجًا آخر فى موضوع وجود الله سبحانه وتعالى.

إن دليل القصد، أو دليل العناية. أو دليل الترابط الذى سبق أن تحدثنا عنه بألوانه المتعددة لا يعدو أن يكون دليلًا واحدًا يسمى باسم اللون الغالب الذى يظهر فيه.

وهو لا يعدو أيضًا أن يكون دليل الأثر على المؤثر، ودلالة الأثر على المؤثر دلالة سهلة واضحة.

وإذا كان أثر القدم يدل على المسير كما قال الأعرابى قديمًا: فإن سماء ذات أبراج، وأرضًا ذات فجاج يدلان - لا ريب - على الحكيم الخبير.

وهذا النهج من وضع «وجود الله» موضع الاستدلال ليس هو النهج الوحيد فى الجو الإسلامى.

وذلك أن الله سبحانه وتعالى فى أعراف المؤمنين ظاهر ظهورًا واضحًا، إنه أظهر من كل ما سواه، إن المؤثر فى أعراف المؤمنين أظهر من الأثر، والخالق أوضح من الخلق. والمكون أجلى من الكون.. وإن من أسماء الله اسم: الظاهر.

ويتفاعل الإمام الكبير، إمام الشريعة والحقيقة، تاج الدين بن عطاء الله السكندرى مع هذا المعنى فيقول - متفننًا فى التعبير والمعنى - جملة من التعبيرات تتحد ألفاظها إلا لفظًا واحدًا أو لفظين فيتغير المعنى بسبب ذلك ويكون للعبارات فى مجموعها معنى لطيف، إنه يقول:

- كيف يتصور أن يحجبه شىء، وهو الذى أظهر كل شىء.
- كيف يتصور أن يحجبه شىء، وهو الظاهر قبل وجود كل شىء.
- كيف يتصور أن يحجبه شىء، وهو أظهر من كل شىء.
- كيف يتصور أن يحجبه شىء، وهو أقرب إليك من كل شىء.
- كيف يتصور أن يحجبه شىء، ولولاه ما كان وجود شىء.

أما عن الاستدلال بالأثر على المؤثر، فإن ابن عطاء الله يقول فى مناجاته:

إلهى، كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك.

والمفتقر إلى الله، فى كلمة ابن عطاء الله، هو الكون كله، هو هذه الآثار كلها فى وجودها، وفى ارتباطها، وفى إمساكها، وفى العناية بها.

ويتابع ابن عطاء الله مناجاته فيقول متجها إلى الله:

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟

- ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟

هل هذا نهج انتهجه ابن عطاء الله مبتدعًا له، مخترعًا له؟ أم أنه نهج عام تتبعه طائفة كبيرة؟

- إن ابن عطاء الله السكندرى صاحب كتاب «الحكم» وهو الكتاب الذى قال فيه الشيخ محمد عبده:

كاد «الحكم» أن يكون قرآنًا.. إن ابن عطاء الله السكندرى هذا لم يكن صاحب فكرة ظهور الله ظهورًا لا يحتاج إلى برهان أو استدلال، وإنما كان سائرًا فى تيارها، مقرًّا له، ومؤيدًا.

وقد كان أحد أفراد طائفة من الخاصة، أو خاصة الخاصة، ترى أن

الاستدلال على وجود الله من شأن العامة والجمهور، وليس من شأن الخاصة والصفوة.

- يقول ابن عطاء الله معبرًا فى ذلك عن رأى الصفوة:

وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان..

لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق فى ظهوره عن أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، وكيف يحتاج إلى دليل من نصب الدليل؟

وكيف يكون معروفًا به وهو المعروف له.

وهذه الطائفة ترى أن الدليل على الله هو الله.

ولقد سئل أحد العارفين عن الدليل على وجود الله فقال:

- هو الله.

فقيل له: فما العقل؟

فقال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

بل يرى هؤلاء الصفوة، أن الله هو الدليل على العالم، فهم يستدلون بالله على وجود العالم، ولا يستدلون بوجود العالم على وجود الله.

يقول ابن عطاء الله معبرًا عن ذلك:

شتان بين من يستدل به ومن يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله

فأثبت الأمر عن وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه؟

ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه؟

ومن قبل ابن عطاء الله.. تحدث أيضًا على هذا النهج العالم الجليل الشيخ أبو الحسن الشاذلى، إنه يقول:

وإذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن إقامة دليل فالمكون أولى لغناه عن الدليل منها.

ويقول: وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذى أظهرها؟ وكيف تكون معرفة له وهو الذى عرفها؟

ويتعجب الشاذلى رضى الله عنه من هؤلاء الذين يتخذون الكائنات والكون دليلاً على الله فيقول على الأسلوب الصوفى:

ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل إليه؟ أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هى المظهرة له؟ وهذا هو النهج الصوفى.

ومهما يكن من شىء فإنه سواء سار الانسان على النهج الصوفى، أو على نهج الاستدلال، فالله موجود، وقد كان سبحانه فى أزل ولا شىء معه، ثم خلق الخلق فكيف بدأ ذلك؟

إن الناس فى كل زمان ومكان يشتاقون إلى معرفة كيفية خلق العالم، ويكثر تساؤلهم بمتى وكيف؟ ويريدون تحديدًا محددًا عن الأول من المخلوقات وعما بعده، إنهم يريدون ترتيبًا يكون فيه التعيين والتحديد.

لقد شغلت هذه المسألة الكثير من الصحابة فأخذوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، بل إن الوفود كانت تأتيه من بعيد، يدفعها حب الاستطلاع، ويتجشمون السفر من أجل المعرفة، هاهم أولاء ناس من أهل اليمن – كما يروى الإمام البخارى رضى الله عنه – يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون: جئنا نسألك عن هذا الأمر، أى أمر الخلق، خلق الكون، لقد جاءوا من اليمن يسألون عن:

– متى وكيف؟

لقد روى الإمام البخارى أيضًا عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال:

قام فينا النبى صلى الله عليه وسلم مقامًا فاخبرنا عن بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه.

ومعنى كلام سيدنا عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخذ يحدث الصحابة عن بدء الخلق متدرجًا مع الترتيب حتى انتهى إلى نهاية العالم ومصيره، والبعث والحساب حتى دخل الذين نالتهم رحمة الله الجنة، والذين اكتسبوا السيئات عاقبهم الله بما كسبت أيديهم فأدخلهم النار.

ولقد روى عن بعض الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم فى ذلك من العصر إلى أن غربت الشمس، ويبدو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فى ذلك عدة مرات.

فقد روى الإمام مسلم عن أبى زيد الأنصارى قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح فصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى بنا الظهر ثم صعد المنبر فخطبنا، ثم صلى العصر كذلك حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا.

ولقد روت الأحاديث الصحيحة جملة من القضايا منها: ما رواه الإمام البخارى عن عمران بن حصين رضى الله عنهما وهى إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم على سؤال وفد اليمن:

والقضية الأولى من ذلك:

كان الله ولم يكن شىء غيره.

- القضية الثانية:

كان عرشه على الماء.

القضية الثالثة:

أنه سبحانه وتعالى كتب فى الذكر كل شىء «أى فى محل الذكر، أى اللوح المحفوظ».

القضية الرابعة:

أنه تعالى خلق السموات والأرض.

القضية الأولى تثبت أنه سبحانه لم يكن - فى الأزل - شيء غيره. لم يكن الماء، ولم يكن العرش، ولم يكن شيء سواه سبحانه.

أما القضية الثانية: فإنها تدل على أنه سبحانه خلق الماء سابقًا، ثم خلق العرش على الماء.

أما القضية الثالثة: فيفسرها ما ورد فى حديث آخر من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم خلق القلم فقال له اكتب ما هو كائن.

وكان خلق السموات والأرض وما فيهن بعد ذلك.

الماء والعرش إذن كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خُلقَا قبل السموات والأرض.

وللقرآن شيء من التفصيل فى مسألة خلق السموات والأرض.

يقول الله سبحانه:

- ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادًا، ذلك رب العالمين﴾ (فصلت آية: ٩)

ثم صورها، شكلها، وجعل فيها رواسى، أى الجبال التى سماها أيضا أوتادًا، وبارك فيها، وقسم أرزاقها، ونظم مصادرها، ومواردها، ورتبها كيفًا فى يومين آخرين، فتكون الأرض مادة، وتنظيمها كمًا وكيفًا، قد استغرقت أربعة أيام.

يقول تعالى:

﴿وجعل فيها (أى الأرض) رواسى من فوقها وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها، فى أربعة أيام سواء للسائلين﴾. (فصلت آية: ١٠)

وكلمة «سواء للسائلين» معناها أنه سبحانه جعلها مستوية معتدلة مذللة للطالبين للرزق. والمعاش. وفى هذا المعنى يقول الله تعالى:

﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً، فامشوا فى مناكبها (أى فى أرجائها) وكلوا من رزقه، وإليه النشور﴾. (الملك آية: ١٥)

ولعل القارئ الكريم يتساءل عن مقدار اليوم من هذه الأيام؟

والواقع أنه غير معروف، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وإن يومًا عند ربك كألف سنة مماتعدون﴾ (الحج آية: ٤٧)

ويقول أيضا عن يوم عروج الملائكة والروح إليه:

﴿تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فاصبر صبرًا جميلاً﴾ (المعارج آية: ٤-٥).

ومن الجائز أن يكون اليوم الذى كان فيه الخلق مثل ذلك أو أقل منه أو أكثر، وكل تحديد فى هذا الموضوع إنما هو ضرب من الخيال.

ومن المعلوم أن أيامنا هذه لم تكن قد وجدت بعد فلم تكن هناك بعد الدورة الشمسية أو الأرضية أو القمرية.. لأن كل ذلك إنما وجد بعد تكامل الخلق، ولم يكن الخلق إذ ذاك قد تكامل.

ثم خلق الله سبحانه سبع سموات، وأوحى فى كل سماء أمرها: أى رتبها كيفًا، ونظمها تدبيرًا، ووضع للسماء الدنيا زينة تتألق وتتلألأ هى الكواكب والنجوم.

يقول سبحانه:

**﴿فقضاهن سبع سماوات فى يومين، وأوحى فى كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا، ذلك تقدير العزيز العليم﴾** (فصلت آية: ١٢).

ومن الواضح فى القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، أن الكواكب والنجوم ليست سماوات وإنما هى زينة للسماء الدنيا، وهى على سعتها وعلى مساحتها الهائلة وما بينها من أبعاد، يذهل الانسان أن يعرف مداها، وعلى الرغم من كل ما يقوله علماء الفلك عن سرعة الضوء، وعما بيننا وبين بعض النجوم من سنوات ضوئية لا تكاد تعد، على الرغم من كل ذلك فإن هذه النجوم والكواكب إنما هى زينة السماء الدنيا ومصابيح حفظ وهداية، إنها ليست السماء، والسماوات من بعدها.

هذا الخلق المتكامل يتحدث الله عنه سبحانه فى هذه الصورة الجميلة من الحديث حيث يقول سبحانه:

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها، وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماءً مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج﴾ (ق آية: ٦-١١).

ولقد تحدثنا عن الخلق المادى، متى بدأ الخلق الروحى: الخلق الحى: الملائكة والجن والإنسان؟

- كان الله ولا شىء غيره، وكان عرشه على الماء.

متى بدأ خلق الملائكة؟

أكان خلقهم قبل العرش والماء؟ أم كان بعد العرش والماء؟

أكان خلقهم قبل السموات والأرض؟ أم بعد خلق السموات والأرض؟

إن الأمر المقطوع به هو أن الملائكة كانت قبل خلق آدم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قبل خلقه خاطب الملائكة قائلًا:

﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾.

وكانت الأرض إذ ذاك مخلوقة تنتظر من يعمرها.

ومن المرجح أن الملائكة خلقت قبل العرش، والماء، وذلك أن الله سبحانه يتحدث عن الملائكة حملة العرش، ومادام العرش تحمله الملائكة فمن المعقول أن تكون الملائكة خلقت قبله لتحمله فور خلقه.

وقد يتساءل إنسان عن الطبيعة الجسمانية للملائكة، وعن عملهم؟

أما عن طبيعتهم الجسمانية فإن الإمام مسلم يروى عن عائشة رضى الله عنها قالت:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خلقت الملائكة من نور».

أما عن عملهم: فإن الله سبحانه أقامهم فى أعمال يقومون بها ويتصرفون فيها بإذنه: فمنهم حملة العرش، ومن الطريف أن حملة العرش مع قيامهم بمهمتهم فإنهم لا يفترون عن التسبيح بحمد ربهم ويؤمنون به. أى يترقى إيمانهم به فى كل لحظة تمر بسبب تسبيحهم بحمده المستمر.

ولا ريب أن الذكر سواء أكان من الملائكة، أم من بنى البشر، قد جعله الله سبحانه سببًا فى زيادة الإيمان ورقيّه.

ثم أن حملة العرش هؤلاء - فضلًا عن ذلك - يستغفرون للذين آمنوا من بنى البشر ومن غيرهم.

ومن الطريف أنهم يعللون طلبهم للمغفرة بأن الله سبحانه قد وسعت

رحمته كل شيء.. ووسع علمه كل شيء، ويلجأون إلى الله بالدعاء والضراعة طالبين منه المغفرة لكل من تاب واتبع الطريق الذى بينه الله ليسير فيه المؤمنون، ويلجأون إلى الله أيضًا بالضراعة طالبين منه سبحانه أن يجنب التائبين المتبعين لطريق الهدى عذاب جهنم، وأن يدخلهم جنات عدن التى وعدهم، وأن يقيهم السيئات، والآيات القرآنية التى ذكرت ذلك فى غاية الجمال أسلوبًا ومعنى.

يقول الله تعالى:

**﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلمًا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم.. وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم﴾** (غافر آية: ٧-٩).

وإذا كيف الانسان ظروفه بحيث جعلها لا تمنعه من ذكر الله ومن الدعاء للمؤمنين فقد تشبه بحملة العرش، وما ذكرت القصة فى القرآن إلا لتكون مثلاً يحتذى.

أتلك هى أعمال الملائكة فحسب؟ كلا.

- إن الله سبحانه وتعالى قد أقام الملائكة فى أعمال يتصرفون فيها

بإذنه وما من شك فى أن جميع حركاتهم هى بإذن الله، ولقد روى الإمام البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟

قال: فنزلت الآية الكريمة:

**﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيًّا﴾** (مريم آية: ٦٤).

فهم فى كل ما يأتون وما يدعون إنما يصدرون عن أمر الله.

ولقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه يرسلهم أحيانًا لنصرة المؤمنين فى الحرب.

إنه يرسلهم أحيانًا لتثبيت المؤمنين كما فعل ذلك فى غزوة بدر قائلًا: **﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾**.

ويرسلهم أحيانًا مددًا كما فعل ذلك فى غزوة بدر أيضًا، يقول سبحانه:

**﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين﴾** (آل عمران آية: ١٢٣-١٢٥).

ومعنى مسوَّمين: أى لهم سمات وعلامات يعرفون بها.

ولعل القارئ الكريم قد لاحظ أن من الشروط التى علق الله عليها إرسال الملائكة: الصبر والتقوى.

ومن طريف ما تروى كتب السيرة من عمل الملائكة فى غزوة أحد القصة التى ننقلها كما وردت:

دخل حنظلة بن أبى عامر على زوجته أول ما دخل بها فنودى بالجهاد فى غزوة أحد من ليلته، فخرج مسرعا إلى المعركة، وأظهر ضروبًا من البسالة والشجاعة حتى أتاه سهم مفاجئ فاستشهد، وبعد المعركة قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

«لقد رأيت حنظلة بن أبى عامر تغسله الملائكة بماء المزن فى صحاف الفضة بين السماء والأرض».

فذهب الصحابة إليه وهو فى القتل فوجدوا شعره يقطر ماءً، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال:

اذهبوا إلى زوجته فاسألوها:

فذهبوا إليها فقالت:

إنه لما سمع الداعى إلى الجهاد خرج مسرعًا وهو جنب، دون أن يغتسل فرجعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال:

من أجل ذلك غسلته الملائكة.

وللملائكة أدوار جميلة منها ما رواه الإمام البخارى:

عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

إذا أحب الله العبد: نادى جبريل، إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادى جبريل فى أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض.

ولا يسعنا ونحن نقص بعض الأعمال التى أقام الله سبحانه فيها الملائكة وأذن لهم فى التصرف فيها: إلا أن نقص القصة التالية التى رواها الإمام البخارى وغيره من كتاب السنة وكتاب السيرة.

قالت السيدة عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقص عليها ما لقيه من قومها مبينًا أن أشد يوم كان يوم العقبة، إذ عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته على (عبد ياليل) وطلب فى الوقت نفسه معاونته على تأدية الرسالة وتبليغها، فلم يجبه ورده ردًّا فيه سخرية، وفيه قسوة.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب،

(وقرن الثعالب مكان على بعد يوم من مكة) فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فنادانى، فقال:

إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال فلتأمر بما شئت فيهم. ثم نادانى ملك الجبال فسلم علىّ، ثم قال:

يا محمد قد بعثنى الله، إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال قد بعثنى إليك ربك لتأمرنى ما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، (والأخشبان جبلان يشرفان على مكة) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا..

ومن هذا الحديث الصحيح تعلم أن الله قد وكل بالجبال ملكًا يطبقها جزئيا أو كليا على من يشاء الله إهلاكه.

أما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو فى غاية الروعة:

لقد أساء إليه قومه بالكثير من وسائل الإساءة، فلم يحاول أن يقابل السيئة بالسيئة وإنما كان رجاؤه أن يخرج الله منهم ومن أولادهم من يؤمن بالله ويوحده ولقد كان صلى الله عليه وسلم يقول فى مواقف كهذا الموقف:

اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون.

وإذا كنا قد ذكرنا هذا الموقف بالذات للرسول صلى الله عليه وسلم،

فلأن هذا الموقف الذى ذكرناه يتمشى مع قوله تعالى:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾..

ومع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«إنما أنا رحمة مهداة».

obeikandl.com